من تراب الطريق (٣٠١) قد يأتى الخير من السوء ! (*)

هذه العبارة : قد يأتى الخير من السوء ، شدتنى فى حوار ناضج راق فى أحد الأفلام الغربية ، أرادت بها الصديقة أن تنتشل صديقها من ليل الأحزان التى تغشته منذ فقد زوجته بعد سقطة لها موجعة .. لم يعد يرى سوى الانتقام والثأر لخسارته المزدوجة ، وبات أسيرًا للواعجه النفسية وما اكتنفه من شعور عميق بالسوء ! ماذا تقول له ؟! شدنى فى العبارة بساطتها وسلاستها وبعدها عن الوعظ الصوتى أو الخطابى الذى كثيرا ما تقع فيه الأفلام والمسلسلات العربية ، إلاّ فيما ندر ..

قليل بل نادر فى أفلامنا ما ارتفع حواره إلى هذا النضج السلس الذى ينساب فى بساطة هادئة بلا تقعر ولا خطابة .. خذ على سبيل المثال الحوار العميق الراقى الذى صاغه كاتبنا الأديب الراحل إحسان عبد القدوس ، وجسده سينمائيا الخيط الرفيع القديران فاتن حمامة ومحمود يس .. تستطيع أن تستخرج من كل عبارة درسا عميقا من دروس النفس والحياة ، يجرى سلسا فى بساطة ، وتقع عليه وتمسك بمعناه بلا وعظ ولا خطابة .. فارق بين هذا الحوار الذى يرتقى برؤية وفهم وذوق ونضج المتلقى ، وبين حوارات يستهويها محض متابعة القفشات والعبارات الشائعة فى الأحياء

(*) المال ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٩

الشعبية أو القرى أو النجوع .. مشدودة بالألفاظ والمترادفات عن العناية بالمعنى .. قد لا يجيد صياغة وجدل الحوار ، من يتقن الحبكة القصصية اللازمة للأعمال الدرامية .. وهكذا الحياة ذاتها .. لا يتصادف فى كل الأحوال أن تجتمع سلامة الفكرة مع صدق التعبير !

لم تأت العبارة التى شدتنى : قد يأتى الخير من السوء ، لم تأت بجديد فى واقع الحياة .. فمعناها متداول ، قد يفهمه الناس بالسليقة ، ومن فاته الفهم يدركه فى خطاب الدين كقول القرآن المجيد : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦] ، وفى الحكم والأمثال .. من مثل : ما تضيق إلاَّ لتفرج .. أو من مثل : «يخلق من ظهر الفاسد عالم ، ومن ظهر العالم فاسد» !

الذى شدنى فى العبارة ، بساطة صياغتها ، وعمق معناها ، وسلاستها البعيدة عن أى تنطع أو تقعر أو مغالاة .. نعم ، قد يأتى الخير من السوء .. أليست النوائب التى تحل بالأفراد والجماعات ، حافزًا لليقظة والانتباه واستخراج قدرة الصبر والصد والمقاومة والخلاص ؟! أليست العاهات التى تولد مع الشخص أو تلم به حافزًا نراه كل يوم فى تقوية باقى حواسه وملكاته ؟! ألا تزداد قوة إبصار العين السليمة بعد إصابة الأخرى ، ويزداد السمع رهافة وحساسية وقدرة مع توارى أو زوال الحاسة البصرية ؟! أليس يُقال كل ذى عاهةٍ جبار ؟ المعنى هنا لا ينصرف إلى التجبر والجبروت ، وإنما إلى ما تحفزه العاهة من استيقاظ ونمو الحواس والملكات والعوامل التعويضية !

فى القرآن المجيد درس بليغ لمن يتأمل الآية : ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣] .. المبادرة إلى الفرح أو الحزن ، اختيالا أو غفلة لا تدرك أن الأسى قد يعقبه ما يسر ويرضى ، وأن الفرح قد يسفر عما يحزن .. من يدرك واقع الحياة ، يعرف أن مشاهدها متتابعة ، وأن أحدًا لا يستطيع أن يمسك بالمشهد الأخير إلا بعد حدوثه !

فى الفيلم الذى شدتنى فيه عبارة : «قد يأتى الخير من السوء» ، لفتتنى عبارات أخرى تجمع بين عمق المعنى وسلاسة وبساطة التعبير .. «الدم لا يمحو الدم» .. كم نحتاج إلى وصايا ومواعظ لندرك معنى هذه العبارة التى تدمغ بلا خطابة كل صور القتل والثأر والانتقام ، فضلا عن صور التعدى والإيذاء والتدمير والهلاك لبنى الإنسان ؟!

*****